الواقعية في الأدب العصري

بقلم سلامة موسى

كلمة الواقعية مشتقة من الواقع . واذن هي معالجة المؤلف للاشياء والناس والمشكلات والحلول وفق الواقع . وليس وفق الخيال .

هي المعالجة الموضوعية التي تتفق وواقع الحال وليست المعالجة الذاتية التي تعتمد على الاغراض الشخصي . ولا يستطيع احد منا ان يفصل الفصل التام بين ذاتيته الشخصية وما تحمل من أهواء وأغراض وبين واقع الحال في الاشياء والناس والمجتمع والفن

بل ليس هذا ضروريا او حسنا . لاننا لا نجد موضوعا ما في هذه الدنيا الا ونحن خلفه باحساسنا وتعقلنا ووعينا وضميرنا . وجميع هذه الكلمات تلابس الذاتية اكثر مما تلابس الموضوعية .

ولكن هناك اشياء تجنبها المذهب الواقعي ونجح في تجنبها . وادى هذا التجنب الى زيادة في الفهم واخصاب في الفن .

تجنب المذهب الواقعي ، اول ما تجنب ، ذلك الاسلوب الموروث بشأن اختيار الكلمات المذهبة وتأنقات الفصاحة والبلاغة ، تجنب الجملة الزاهية والكلمة اللامعة ، كما كان اسلوب العصر الماضي قبل الواقعية ، بل كما كان اسلوب الكتاب عندنا في اللغة العربية ايام القرون الوسطى ، هذا الاسلوب الذي نراه على اقصاه وارذله في مؤلف سيرة صلاح الدين .

فاننا هنا نقرأ جملا مسجوعة وتأنقات لفظية يلتذها المؤلف وقد يلتذها القارىء ايضا . ولكننا ننسى في سياق هذه الكلمة الحلوة التي نتمززها اكثر مما نقرأها اننا ازاء شخصية تاريخية عظيمة كانت قدرا في التاريخ بين الشرق والغرب واننا لا نعرف عن صلاح الدين ما كنا نحب ان نعرفه .

تاريخ صلاح الدين الذي ألفه هذا الرجل لم يكن واقعيا وان كان تأنقا فنيا . ومع ذلك ما كان أسخفه من فن !

وكما رفضت الواقعية الكلمة المذهبة والجمل المتأنقة كذلك رفضت الاستسلام للغيبيات . فليس الفقر مثلا حكم الاقدار على الناس . وانما هو مرض يمكن ان يعالج . وليس الانسان اسيرا في هذا الكون يخضع للطبيعة وانما هو سيد هذا الكون يغير الطبيعة ، وليس الانسان عاجزا يجب ان يرضى بعجزه وانما هو قادر على ان يحيل عجزه الى علم ومعرفة يسيطر بهما على حظوظه .

وأخيرا ليست الواقعية من حيث أنها طراز فني للتفكير والتعبير تهدف الى الجمال . وانما هي ، في ظروفنا الحاضرة ، ظروف الفقر والجهل والمرض ، ظروف الرق والحرب والاستعمار ، تهدف الى الانسانية . اجل . ليست الواقعية ممارسة الفن للفن .

الواقعية هي اسلوب الادب الجديد ، ادب العلم والانسانية معا . هي ممارسة الفن لخدمة الانسان .

*

الواقعية ضد الرومانسية

في مصر كتاب يصفون الشعراء العرب في القرون الوسطى بأسمى الاوصاف وانهم البلاغة كلها والادب كله . ليس افصح من البحتري ولا اعجب من ابن الرومي ولا اعظم من المتنبي . أجل . ويصفون الخلفاء ويتغنون بالبذخ الذي كان يعيش فيه هرون او المأمون والجواري والحلل الذهبية والقصور والكرم الحاتمي . بل انهم ليصفون لنا ، برهانا على العظمة والتمدن وسمو العيش ، بركة قد وضع المسك بدلا من الطين على حافاتها . وكل هذه الاشياء تحتاج الى وصفها بكلمات متأنقة كلها فصاحة وبلاغة . هؤلاء رومانسيون .

ولكن في العراق كاتبا واقعيا يدعى علي الوردي . هذا الكاتب قد وضع مؤلفات اوضح فيها ان شعراء العرب في الجاهلية كانوا يمشون بالوقيعة بين قبيلة وقبيلة . وكانوا سببا ، لهذا السبب ، للقتال بين القبائل يحرضون على الثأر والانتقام ولا يدعون الى سلام . وقد ذمهم القرآن ووصفهم بالغواية .

ثم كان شعراء العرب بعد ذلك أي ايام الخلفاء متسولين يبيعون اشعارهم في المديح والهجاء بالدينار والدرهم . يمدحون بلا سبب ويقدحون بلا حق . أو كانوا ، مثل ابن الرومي وابي نواس ، برازيين فاسقين .

كانوا ، كما يقول علي الوردي ، بلاء على المجتمع العربي . ولم يشذ منهم ويسمو عليهم سوى ابي العلاء المعري الذي كان ينبه الشعوب العربية الى ضلال الحاكمين والمتدينين

ومكرهم جميعا لخطف اللقمة من افواه الفقراء المساكين.

ان كتاب مصر الان رومانسيون ذاتيون يتبعون الخيالات الكاذبة والاحساسات البدائية عندما يكتبون عن الشعراء العرب . وعلي الوردي موضوعي واقعي يقول ان الخلفاء كانوا يظلمون الشعوب العربية ويجدون من الشعرا مؤيدين لهم مادحين لظلمهم .

*

الواقعية تعني أن التأليف الفني ليس هو البراعة في محاكاة القدماء ، في افكارهم وكلماتهم ، وأساليبهم وأهدافهم ، وانما هي النظر الموضوعي الى المجتمع ومحاولة الوصول الى كنه حقائقه واصوله والتعرف الى اسباب سعادته وتعاسته .

والكاتب الواقعي لا يستسلم للاوهام بأن يكون موضوعه فخما يتناول اميرا او ملكا او قائدا ويكتب الاضاليل والاكاذيب عنه . لان واقعيته قد نقلت اهتمامه من هذه الموضوعات الملوكية الى الشعب ، الى الالاف والملايين الكادحة ، الى الانسانية .

فهو ، مثل تولستوي ، يعالج الحرب كما هي في واقعها ونتائجها ودمائها وامراضها وأغراضها العليا اذا كانت حرب كفاح ضد العدوان ، او السفلى اذا كانت حرب استعمار وعدوان . وهو يسأل : ما هي القيمة الانسانية في حرب ما ؟

والقيمة الانسانية هي المحك لجميع الموضوعات التي يعالجها ، مثل الاستعمار والاستقلال ، بل الرق في ايامنا ، بل العادات الدينية المهلكة التي تنافي كرامة الانسان وتبعث الشقاق والبغضاء بين طوائفه

اني احب عندما يتحدث احد عن عبقرية المتنبي ، الذي وقف حياته على مدح سيف الدولة وسب كافور ، ان أسأل : أما كنا نحب المتنبي ونعجب به اكثر لو انه كان قد ألف قصيدة في وصف حياة عبد قد اشتراه سيده وهو في العاشرة من عمره ، ثم خصاه كي يعيش مع الحريم طيلة عمره ؟ وأحب لو أن شوقي الذي وقف حياته على مدح عباس لو كان قد الف دراسة عليا عن عرابي الذي دافع عن استقلال مصر وكافح استبداد الخائن توفيق .

ان الواقعية هي الانسانية ، هذه الانسانية التي كانت تطرق اذن المتنبي وشوقي وتناديهما بشأن الرق الرسمي في ايام سيف الدولة والرق الفعلي في أيام توفيق . ولكن هذه الاذان كانت في صمم عن هذا النداء الانساني لان هذين الشاعرين لم يكونا يعيشان في المجتمع وانما كان يعيشان فوق المجتمع . ولا يزال الرق باقيا الى عصرنا ، الى هذه السنة ١٩٥٨ في بعض الاقطار العربية . ولم يصرخ اديب صرخة الشرف ضد السفلة من الامراء والاثرياء الذين يمارسونه ، وذلك لسبب واحد هو ان ادبنا التقليدي غير واقعي ، ملوكي غير انساني.

« الانسان » ليس موضوع الادب العربي في ايامنا .

« شئون المجتمع » المصري او العربي ليست من شئون الادب.

مع كلماتي هذه بما تحتوي من لهجة التعميم احب ان أتحفظ وان اقول ان طائفة جديدة من الكتاب، جديدة في الوجود لان افرادها لا يزالون صغارا ، بالمقارنة ، في السن ، الى غيرهم ، قد وجدت الطريق الى الانسانية والمجتمع فأنشأت الاسلوب الواقعي . وقد امضى افراد هذه الطائفة او معظمهم بعض سنى شبابهم في السجون لهذا السبب وكانت هذه السجون مدارسهم التي اختمروا فيها وبعد الاختمار الانفجار او بعد الاضطرام الاشتعال

*

الانسان هو كما قلت موضوع الواقعية

الانسان العادي في نظامنا الطبقي . العامل والعاملة ، والزوج والزوجة ، والطالب والمعلم والارملة واليتيم ، والشاب والشيخ . كل هؤلاء وغيرهم في كفاحهم كي يعيشوا في كرامة بعيدين عن خطر المرض والجوع والفقر والحرب .

ولا يمكن ان يعرف الفنان في عصرنا مشكلات هؤلاء الافراد العاديين الا اذا درس الاقتصاد والاجتماع

الا يدخل الاقتصاد بيت الزوجة الام ، عندما نشتري رغيف الخبز وطبق الفول في الصباح؟ الا يدخل الاجتماع بيت الزوجة ، الام ، عندما يرميها زوجها بالطلاق ؟

الا يدخل كلاهما السجن عندما يتعطلان عن العمل الكاسب ويسرقان ؟ الا يدخلان القبر عندما يجوعان هما وابناؤهما حتى الموت ؟

الاديب الواقعي هو الذي يدرس الاشتراكية أصلها وفصلها واسلوبها وهدفها

والادب الاشتراكي هو لذلك الادب الواقعي في صميمه. لانه هو الادب الذي بسطت له الدراسات الاشتراكية احوال العيش واساليب الإرتزاق وما تحوي من خير وشر ومن عظمة وسفالة .

*

في ١٩٤٨ اظهر « البيان » الذي ألفه ماركس ووضع به يد الرجل العادي على اصل المجتمع . وفي ١٨٥٩ الف داروين كتاب « اصل الانواع » ووضع به يد الرجل على اصل الانسان

. وعرفنا من كلا الكتابين اننا تطورنا في الغابة . وما زلنا نتطور في المجتمع . وكانت كلمة « التطور » مفتاحا سحريا جديدا نعالج به مشكلاتنا ونبنى به آمالنا . وحطمنا بهذه الكلمة خرافات العقائد وتعلمنا كيف نكافح كي ننير الادمغة المظلمة ونخرج منها الاساطير وننفذ الى خلاياها النور.

النظرة الواقعية للكون والطبيعة والانسان هي نظرة التطور

لقد تعلمنا من التطور اننا والحيوانات اسرة واحدة . وكان اميل زولا يلحظ ذلك في قصصه الواقعية عندما تناول الحياة الجنسية في الانسان

ولكن الواقعية ارتفعت على ذلك .

فان هنريك ابسن ينظر الى العائلة خيال السعادة الذي نتفق عليه ونعمم الوهم به زاعمين ان الزواج كله سعادة وان مكان المرأة الحقيقي في وجودنا هو البيت حيث تجد الراحة والرفاهية . وننسى ان الزوجة تمسح الكنيف وتمضي الساعات في تنظيف المطبخ والطفل ، وتقضي نهارها في الطبخ والكنس . وهي ، في كل هذه الاعمال التكرارية ، لا تربي نفسها ولا تبني شخصيتها بل لا تجد حتى الاعتراف بفضلها من زوجها او من المجتمع .

وهنريك ابسن ابو الواقعية العصرية ، يحثها لذلك على ان تخرج من البيت وتبني شخصيتها تتعلم وتتعرف الى الدنيا والمجتمع وتكسب وترتزق وتحيا حياتها ولا تحيا تلك الحياة التي يطلبها منها زوجها والمجتمع

أنا أعده اول الواقعيين في عصرنا او آخطرهم قبل مائة سنة

ولكن عصرنا يحوي ادباء واقعيين اعمق منه

وانما صاروا اعمق منه لان الاشتراكية فتحت الابواب السرية للجتمع ووقفتنا على ما فيه من خبث ولؤم ، وأوهام وخرافات ، وفقر وجهل ، وعذاب وهوان ، ووقفتنا ايضا على احلام جديدة نحلمها ، أكاد اقول انها رومانسية جديدة ، هي هذا المستقبل الزاهي الذي ينتظر الشعوب بتحقيق النظم الاشتراكية .

ان الوعي الاشتراكي قد اوجد وعيا للفقر والظام وبعث دراسات انسانية جديدة تهدف الى البر والخير للانسان وتحضه على الكفاح من اجل مجتمع جديد يطمح الى تحقيقه ، كما ان هذه الدراسات قد جعلتنا نفهم الاسس الاقتصادية للحرب والاستعمار بل للتعصب الديني والتعصب اللوني .

ونحن ، كما قلت ، حين نفكر في المستقبل الاشتراكي للانسان ونحاول أن نضع لبنة فوق لبنة في بنائه ، انما نعالج رومانسية جديدة تهدف الى المستقبل وتخالف الرومانسيات القديمة التي كانت تجد السعادة في الماضي بل أحيانا في انسان الغابة .

الرومانسية الجديدة هي رومانسية برنارد شو مثلا حين يرسم لنا خيالا عن « السبرمان » اي الانسان الاعلى الذي يكون منا كما نحن من القردة العليا . او حين يهدف إلى مطامع انسانية جليلة كأن نعيش نحو الف سنة فنجد المجال والفرصة للتربية الشخصية . ولو انه عاش الى زماننا لالف درامة ، عقب القمرين السوفيتيين ، عن السفر الى المريخ .

ان العالم قد علمنا ولا يزال يعلمنا رومانسية جديدة . ولكن هذه الرومانسية لن تنسينا واقعنا المظلم الذي يحفل بالقبح والفقر والمرض والجهل فموضوعنا الان يجب ان يكون هذه الواقعية .

القاهرة — سلامه موسى

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان

او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣